

زيارة الأربعين وثقافة المشي: تيار هادف

2017-11-09 محمد علي جواد تقي

لمن يرمي ببصره على الأفواج والجحافل الزاحفة نحو كربلاء المقدسة هذه الأيام لزيارة الإمام الحسين، عليه السلام، في أربعينه، يُخيل إليه أن ثمة عفوية وتلقائية مدفوعة بحماس شديد، وحب عميق لصاحب المناسبة، وهو تصور لا يجانب الحقيقة، بل هو جزء منها، بيد أن الحقيقة كاملةً في هذه التظاهرة الجماهيرية المليونية، وجود ثقافة غير مكتوبة، لكنها مثبتة في الوجدان والقلب الذي يحمل الإيمان والولاء، وهذا ما يجعلنا نلاحظ التطور النوعي في مجالات عديدة داخل هذه التظاهرة التي تبدأ ربما قبل اسبوعين من يوم العشرين من صفر، فهناك التطور في نوع الخدمات المقدمة للزائر من حيث الكم والكيف، كما هنالك التطور في تنظيم المواكب السائرة من مناطق ومحافظات عديدة في العراق، وايضاً من خارج العراق.

كل ذلك؛ يجعلنا أمام منظومة ثقافية متكاملة أيام الأربعين، تتضمن السلوك والتقاليد والصفات الاخلاقية الحسنة ترافق الزائرين، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، ومن كل شرائح المجتمع.

فما هي ثقافة المشي؟

أولاً: العطاء

هنالك فرق بسيط بين "الكرم"، وبين "العطاء".. فالحالة الأولى؛ مبادرة يقوم به الإنسان لضيف له، فيقدم له كل وسائل الراحة من منام وطعام وغيرها، بل حتى احياناً وسيلة نقل لذهابه وإيابه الى موطنه. بينما الحالة الثانية، فهي تحمل نفس المواصفات وبنطاق أوسع، إذ ربما لا يلتقي المعطي بمن يتسلم العطاء إلا نادراً، وهذا ما نلاحظه في أماكن إقامة الزائرين، وسيارات النقل، وتوزيع المواد الغذائية وغيرها من أنواع العطاء.

نعم؛ هنالك مضايف وسرادق مترابطة على الطرق الرئيسية تستقبل الزائرين، وهنالك من يقدم

الخدمات المتنوعة للزائرفن؁ كما هنالك أعداد مضاعفة يقفون فف الظل؁ يصلون اللفل بالنهار؁ وففذلون جهوداً كبفر؁ لتوفر الراحة والأمان للزائرفن؁ فهنالك الماء والكهرباء والدفء والوقود؁ وتوفر المواد الغذائية بكمفام كبفر؁ وافضاً وسائل النقل وغيرها؁ كلها أمور فعد لها وتوفر من خلال جهود كبفر لأناس ربما لا فحالفهم الحظ وففكونوا متواجدفن داخل الموكب وهو فقدم خدماته للزائرفن على الطرفق.

هذه الصفة الانسانية السامفة؁ نجدها فف تقالفف الناس وآدابهم وأخلاقهم؁ وهم فسعون للمشاركة فف هذه التظاهرة الجماهفرفة؁ وخدمة السائرفن على الاقدام باتجاه مرقد الإمام الحسين؁ عليه السلام. هذا الى جانب العطاء المباشر الذي بات أمراً مألوفاً فف هذه الزفارة؁ وافضاً فف الزفارات المفلونفة الاخرى الخاصة بالإمام الحسين؁ عليه السلام؁ مثل الزفارة الشعبانفة؁ وزفارة فوم عرفه؁ هذا اضافة الى أيام عاشوراء. نرى أعداد كبفر من الناس فسارعون الى العطاء والبذل؁ فمنهم من ففتح داره للزائرفن؁ ومنهم من فقدم الطعام والشراب. وفف الآونة الاخرة؁ نلاحظ مبادرات من نوع جففد لتقفم الخدمات لمن لا فمملك الامكانفة المادفة الكبفر؁ فانه فقوم بفغل ملابس الزائرفن أو صبغ احذفهم أو تسهفل أمر الاتصال بالهاتف الجوال؁ وغيرها من مختلف انواع الاعمال والمبادرات التي تصب كلها فف خدمة الزائر وتسهفل أمر سفره على الاقدام نحو كربلاء المقدسة.

فالزفارة الاربعفنة - على وجه التفففد- تشكل فرصة لتكرفس ثقافة العطاء والبذل لصاحب الحاجة؁ وفرصة ففصاً لمكافحة نزعة الأنا وحب الذات والتملك. هذه المناسبة تعبئ الانسان طفلة أيام السنة؁ على العطاء والبذل فف سبفل القفم والمبادئ؁ لاسفما اذا رأى مردود هذا العطاء أمامه وفلمسه بحواسه ومشاعره؁ ففث فتشكر الزائر مما قدم له من خدمات؁ كذلك الحال فف تجسد بالنسبة للففم - مثلاً- عندما فسففم من خدمات انسانية وثقاففة من مؤسسة او جمعة ففرفة؁ أو عندما تشفد مكتبة عامة فسففم منها طلبة العلوم الدفنة والاكادفمفة؁ وففدون ارتفاحهم من هذه المبادرة الحضارفة. بفعنى إننا أمام الزائرفن فف أيام الأربعفن وهم بحاجة الى خدمات متعددة وكثفر؁ كما نكون أمام عموم أبناء بلدنا وأمنا وهم بحاجة الى مختلف أشكال العطاء المادف والمعنوف والثقافف.

ثانفاً: الحب لا الكراهفة

تبتلى مجتمعاتنا بحالة التناز والتمايز والتباعد، وكل ما من شأنه التفرقة والنفرة بين أفراد المجتمع، لأسباب اجتماعية، مثل الطبقية، أو أخلاقية وسلوكية تجعل الانسان يدور حول نفسه، ويريد كل شيء له، لا لغيره، ثم يغمره شعورٌ بالتفوق والتعالي على الآخرين لصفة تملكها أو موقع اجتماعي أو سياسي تسنّمه، أو حتى حيازته لدار وسيعة، أو سيارة فارهة وغير ذلك.. كل ذلك يجعل من حالة الحب والمودة إزاء الآخرين، أمراً بعيداً عن ذهنه وتفكيره، وربما يستغرب هكذا حالة إن طالبه أحد بها، لعدم وجود معنى لها في نفسه.

هذه الحالة أو الظاهرة النفسية، لا وجود لها في "المشي" الى كربلاء المقدسة.. لأن الثقافة هنا، تدعو الى مد يد العون لهذا وذاك، وفي كل الاحوال والظروف، كما تدعو الى التواضع والإيثار والتعاون، وبكلمة؛ حب الخير للآخرين.

والسبب في ذلك الذوبان الكامل في النهضة الحسينية، حيث يشعر الزائر وكل من يسهم في تقديم الخدمات للزائرين، أن لا شيء يحتفظ به لنفسه أمام العطاء والتضحية التي قدمها الإمام الحسين، عليه السلام، من أجل أن تعيش الاجيال من بعده، حرة كريمة، بعيدة عن أغلال الطغاة، وآمنة من المفسدين والمنحرفين. لذا فان مشاعر الحب الجياشة والمواكبة للمشي الى كربلاء المقدسة، تعبر عن محاولة الاقتداء بسيد الشهداء، عليه السلام، الذي تميّز ضمن ما تميز به، بحبه للخير للجميع، حتى آخر اللحظات التي سبقت وقوع السيف بينه وبين أهل الكوفة المغرر بهم لقتاله.

وهذا تحديداً من النقاط المضيئة التي التفتت اليها الشعوب المسلمة وغير المسلمة في العالم لدى تعرفها على شخصية الامام الحسين، عليه السلام، وعلى نهضته وقضيته. فلا كراهية، ولا إقصاء، ولا تهميش وتقليل من قدر الطرف المقابل، ما زال يشترك في الأخوة الإيمانية، او التماثل الانساني. وهذا ما لاحظه أعضاء وفد "الفاتيكان" المشاركين هذا العام في "المشي" مع الزائرين، حيث لم يلاحظوا أي حساسية او كراهية من سائر الزائرين، على العكس، هنالك الفخر والاعتزاز بوجودهم في موكب "المشي" لأنهم يريدوا أن تجسّد قيم ومبادئ النهضة الحسينية لهم وللعالم.

المشي.. تيار هادف يقرر مصيره بنفسه

لأن له هدف محدد وواضح، وعوامل ذاتية للتفاعل والحيوية، وقدرة غيبية - معنوية على التأثير في النفوس طيلة العهود والعصور التي مرت عليه، فإن "المشي" لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، بات يشكل تهديداً - بشكل أو بآخر- على مصالح الحكام والأنظمة السياسية المتعاقبة في العراق، لأن المعروف أنها ترمي بالدرجة الأولى الى كسب القاعدة الجماهيرية لتوطيد وتكريس وجودها السياسي وضمان فترة أطول في الحكم، إلا ان هذا "المشي" يشكل هاجساً مرعباً يقضّ المضاجع ما أن تحلّ أيام أربعين الامام الحسين ، عليه السلام، لذا شهدنا طيلة العقود الماضية، في التاريخ المعاصر، وفي العقود الاولى من التاريخ الاسلامي، محاولات عنيفة وشديدة من الحكام لوضع السدود والحدود أمام هذا التيار الجماهيري، وثني الناس من "المشي" لكن دون جدوى.

وهذا يثير السؤال: عن السبب الحقيقي وراء هذه المخاوف..؟، لأن "المشي" بالأساس، ليس تظاهرة سياسية، ولا حركة عصيان مدني، ولا أي شكل من أشكال التحرك السياسي الذي تنظمه جماعات سياسية أو نقابات او منظمات مجتمع مدني وغيره، للتأثير على القرار السياسي واستهداف النظام الحاكم، إنما هو - كما هو واضح للعالم- عبارة عن سيل بشري يتشكل بمرور الايام من مناطق مختلفة من داخل وخارج العراق، يتوجه صوب كربلاء المقدسة لزيارة الامام الحسين، عليه السلام، في أربعين استشهاده. وهم لا يحملون بأيديهم سوى الأعلام الحمراء والبيضاء والخضراء، للدلالة الرمزية على وجود مواكب للزائرين، كما لا يحملون في أذهانهم سوى الساعة التي يصلون فيها الى المرقد الشريف.

العقدة العصية على الحل عند أهل الحكم، سواءً عند الحاكمين في العراق او غيره، هي "الولاء" في هذه المسيرة الجماهيرية، فقد قرأ النظام الصدامي في خلال فترة حكمه في العراق، تاريخ هذه الحركة، ووجد أن القمع المباشر والعنيف سبباً في تقويتها وتكريسها في النفوس، لذا حاول في السنوات الاولى من حكمه استيعاب هذه الحركة وتوجيهها بالشكل الذي تخلو فيه من المضامين والمفاهيم التي تحملها ومن أجلها تضم كل هذه الحشود البشرية، فلا حديث عن ظلم ولا طغيان ولا انحراف في النظام الحاكم ، إنما هي زيارة لمرقد أحد أولياء الله الصالحين، كما أي مرقد آخر. لكن عندما وجد الجذور العميقة لتلك المفاهيم في النفوس والضمائر، ألقى قناعه جانباً وأظهر وجهه الحقيقي المعادي لأي محاولة للتغيير والإصلاح، باستخدام أعنف الوسائل وأكثرها وحشية. فكانت المواجهة المكشوفة التي جرته الى حتفه.

من هنا؛ احتفظ "المشي" براية الولاء المطلق للإمام الحسين، عليه السلام، ونهضته الحضارية، وهذه الرسالة - يبدو- انها وصلت الى كل مكان بعد انهيار النظام الصدامي في العراق عام 2003، فقد شهد العالم بأسره، لاسيما المعنيين في العواصم الاقليمية والدولية، حجم وقدرة هذا الولاء في تحشيد وتعبئة الجماهير في أول زيارة أربعين تجري بحرية تامة من دون "صدام"، منذ حوالي اربعين عاماً.. لذا يمكن القول: أن "المشي" حقاً، تيار جماهيري جارف يقرر ويرسم مصيره بنفسه، فهو الذي انطلق وتشكل منذ أمد بعيد، وتطور بفعل التجارب ومستجدات الزمان والظروف الاجتماعية، ليكون بهذا الشكل من التنظيم والتنسيق، حيث تشهد كربلاء المقدسة هذه الايام توافد الملايين من البشر خلال ايام معدودة، لأداء مناسك الزيارة.

لكن؛ هذا ليس كل شيء.. فالتيار الجماهيري الجارف الذي عجز الحكام عن تحجيمه والتضييق عليه، بات اليوم يفرض إرادته على الحكام وعلى الواقع السياسي والاجتماعي وحتى الاقتصادي والامني.. وهذا هو - بالحقيقة- قمة التطور في قضية "المشي". فعندما تتحول ظاهرة ما الى أمر واقع، فانها تستقطب الجهود والطاقات والامكانيات لتكون في خدمتها، كما هي النبتة او الفسيل في الأرض الخصبة، فاذا انطلقت جذورها في الأرض، بدأت تمتص العناصر الغذائية من أملاح وماء، كما تستقبل أشعة الشمس والهواء وغيرها من عوامل النمو والارتقاء، فتنحدر الى شجرة باسقة مثمرة، ليس لا يفكر أحد بقطعها، إنما يتوجه الناس للاستفادة منها والاعتزاز بها.

هذا الدرس فهمه الناس وابناء الأمة في كل مكان، وقد بلغت حالة النضج اليوم مرحلة متطورة، بقي أن يفهمه المسؤولون الحكوميون في البلاد التي ينطلق منها الزائرون، وعندما تصل الرسالة بشكل صحيح الى هؤلاء، فانها ستصل بالشكل نفسه وأكثر قوةً الى من يشعر بالخوف الشديد من هذه الظاهرة والحركة، ليس على مستقبله السياسي، إنما على عقيدته وتاريخه، وهذا أشد خطراً، لأن العقيدة هي التي تحمل النظام السياسي وتضمن له الاستمرار في الحكم. وهنا يتحدد المسار؛ إما أن تتراجع وتدع "المشي" يشق طريقه الى الأمام ولا تتعرض له، كما لو أنه لا يستهدف بالأساس التنظيمات الارهابية والتكفيرية، ولا الدول التي تقف خلفها. وإما ان يكون تختار المواجهة وتكرار التجارب الفاشلة للحكام السابقين على مر التاريخ الذين دفعوا ثمن حياتهم السياسية وخلفيتهم العقائدية والفكرية، من أجل إيقاف هذا "المشي" وهذا التيار الجماهيري، لكن دون جدوى.

* مقال من أرشيف شبكة النبأ المعلوماتية 18/كانون الأول/2013 - 14/صفر/1435